النهضة الصحية والمؤسسات الإنسانية

obeikandl.com

النهضة الصحية

لما ارتقى جلالة الملك فؤاد العرش في سنة ١٩١٧ كانت الجهة الحكومية التي تشرف على الصحة العامة تدعى مصلحة الصحة العمومية

وفي سنة ١٩١٩ أمر جلالته بتحويل مصلحة الصحة العمومية إلى وكالة وزارة للشؤون الصحية ملحقة بوزارة الداخلية

ولم يلبث جلالته أن أوعز بانشاء كادر لرجال الصحة و بإيفاد بعثات طبية إلى أوربا و باعادة النظر في النظم الصحية و بتأليف مجلس فني أعلى للصحة

وفي سنة ١٩١٧ كانت ميزانية مصلحة الصحة ٤٥٩٨٦٦ جنيهاً

وفي سنة ١٩٢٧ أصبحت ٩٧٣٣٧٣ جنيهاً

أي أنها تضاعفت في خلال عشر سنوات

وكأنما شعر الملك فؤاد في أوائل سنة ١٩٣٦ بأن أيامه أصبحت معدودة فأراد أن يكمل أساس البناء الذي تعهده نحو عشرين سنة فحول وكالة وزارة الصحة إلى وزارة

ومما قلناه في مقدمة هذا الكتاب أنه لن يكون كتاباً يضم بين جلدتيه خطباً رسمية وتقارير حكومية و إحصاءات أميرية ولذلك لن نتوسع في سرد البيانات والأرقام المستقاة من المراجع الرسمية ولكن قد يكون من المفيد أن نسجل هنا أنه في سنة ١٩١٧ لم يزد عدد العينات التي فحصتها معامل الصحة بكتريولوجياً وكيمائياً على ١٣٧٦٠ عينة فقفز هذا الرقم بعد عشر سنوات إلى ٤٠٤٥٧

وفي سنة ١٩١٧ وزعوا ١٥٥٨٦٧٧ حقنة للتطعيم بالمصل الواقي من جدري الماء

فلما حلت سنة ١٩٢٦ أي بعد عشر سنوات وزعوا ١٥١١٤١٠١ حقنة

و يؤخذ من الاحصاءات الخاصة بالبلهرسيا والانكلستوما أنه في سنة ١٩١٩ لم يزد عدد الذين عولجوا من هذين المرضين على ٣٧٤ فلما كانت سنة ١٩٢٦ بلغ عددهم ١٥٣١١٨

فإذا أضفنا هذه الأرقام وحدها إلى الزيادة التي زادتها أرقام ميزانية الصحة من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ثم من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٦ أمكننا أن نقدر الخطوة الكبيرة التي خطتها البلاد في سبيل النهضة الصحية في عهد الملك فؤاد وقد نعجب متى علمنا أنه قبل أن يعقد المؤتمر الطبي الدولي في مصر في سنة ١٩٢٨ كانت مصر قد اشتركت بإيعاز من الملك فؤاد في ثلاثة عشر مؤتمراً دولياً للصحة والطب والصيدلة

* * *

وأتيح لي أن أشهد زيارة الملك فؤاد لمصحة فؤاد في ضاحية حلوان ليفتتحها رسمياً وكذلك زيارته لمستشفى الملك ليفتتح الجناح الجديد الذي أنشئ فيه وقد تجلى في هاتين الزيارتين تقدير جلالته للمؤسسات الصحية ولمهمتها الإنسانية وعطفه على القائمين بأمرها على منوال يغني عن كل إفاضة في البيان

ومن الذكريات الجديرة بالتسجيل هنا أنه لما وصل الملك فؤاد في طوافه بالمصحة إلى حجرة الأشعة قال له الدكتور برنان — كبير أطباء المصحة في ذلك الحين — إن التجارب التي جربها والإصابات التي عالجها دلت على أن جو حلوان من أكثر أجواء العالم ملاءمة لمعالجة التدرن الرئوي وأن المصحة الحالية قائمة في أفضل مكان يمكن اختياره لهذا الغرض

فابتسم جلالة الملك وقال بالفرنسية : « وقل إني لما طلبت شراء هذه الدار لتحويلها إلى مصحة عارضوني معارضة شديدة ولكني صممت على رأيي وألححت

في طلبي . . . وهكذا يجب على الإنسان أن يتذرع بصدق العزيمة في مثل هذه الظروف »

و بعد ما طاف جلالته بالقسم الخاص بمرضى الدرجة الثالثة وأعجب بنظافة غرفه ونظام حجره انتقل إلى قسمي الدرجتين الأولى والثانية فأعجب بما شاهده وأثنى على كل ما رآه فدعاه الدكتور برنان إلى مشاهدة القاعة الكبيرة التي خصصت لتسلية المرضى وقد صفت فيها صفوف الكراسي أمام لوحة السينما الفضية التي تنعكس عليها الصور المتحركة وقال الدكتور برنان : « إن المرضى يتسلون في هذه القاعة بالتفرج على الروايات السينمائية » فقال جلالة الملك : « و بماذا يتسلون ؟ » فقال الدكتور برنان : « بالروايات السينمائية » فقال جلالة الملك مستدركاً : « أعني أي نوع من الروايات تعرضون عليهم لتسليتهم ؟ » فقال الدكتور برنان : « إننا نختار لهم الروايات التي تمثل المخاطرات والمغامرات (افنتور) و إني أراقب كل شريط نعرضه هنا مراقبة دقيقة »

وفيما كان جلالته خارجاً من هذه القاعة الكبيرة أطل على فناء المصحة وكان المرضى يتطلعون من نوافذ غرفهم فلما أبصروه هتفوا بحياته ، فالتفت جلالته إلى الدكتور برنان وقال له : « قولوا لهم ألا يهتفوا لئلا تتعب رئاتهم » فاستعاض المرضى عن الهتاف بالتصفيق الشديد

وطلب الملك أن يزور مطابخ المصحة ولما وصل إليها سأل رئيس الطباخين عن أنواع الطعام التي يعدونها لمرضى كل درجة من درجات المصحة الثلاث ولما وقف على ما أراد معرفته من المعلومات التفت إلى الطهاة وقال لهم : « أريدكم أن تشتغلوا هنا بعناية لأنكم تخدمون الإنسانية »

و بلغ من شدة إعجاب الملك بنظافة المطبخ ونظامه أنه التقى وهو خارج من بابه بجناب المسيو نوس بك مدير شركة السكر وقتئذ فدعاه جلالته إلى زيارة المطبخ

والتفت جلالة الملك إلى الدكتور برنان في أثناء اتجاهه إلى فناء المصحة وقال له : « إني مغتبط جداً بما رأيت » فشكره الدكتور برنان على هذا العطف السامي وقال : « إننا لم ننجز العمل كله يا صاحب الجلالة بعد » فالتفت جلالته وراءه وقال لرفعة النحاس باشا — وكان يومئذ رئيساً لمجلس النواب — مخاطباً في شخصه مجلس النواب : « هاتوا الفلوس » ثم قال جلالته : « بالمثابرة والثبات نصل إلى كل شيء »

وبعد ما وقع جلالته باسمه الكريم في دفتر الزيارات دنت من جلالته كريمة الدكتور برنان — وهي في الثامنة من عمرها — وقدمت له طاقة جميلة من الورد وقالت : « إني أرجو من جلالتكم أن تتقبلوا هذه الطاقة التي ستعبر لكم عن شكر المرضى الذين هم مدينون بحياتهم لفكرة جلالتكم » فقال جلالته بصوت مرتفع : « ولعلم والدك » . فكانت هاتان الكلمتان « خير مكافأة لي على العمل الذي تسنى لي عمله » كما قال الدكتور برنان بعد ذلك

* * *

ولما زار الملك فؤاد مستشفى الملك كان كلما دخل عنبراً من العنابر التي وضعت فيها عدة سرر للمرضى يدنو من بعضهم ويسألهم عن مرضهم ومبلغ تقدم علاجهم وكان بين الذين شملهم جلالته بعطفه في إحدى القاعات فتى في العقد الأول من عمره فسأله : «أنت أحسن يا صغير؟ » فأجاب الفتى وهو يؤدي التحية العسكرية : « أحسن شويه »

ودنا جلالته في قاعة أخرى من مريض ليسأله عن مرضه فأراد المريض أن ينهض قليلا في فراشه احتراماً وإجلالاً فمنعه قائلا : « خليك . خليك »

وأبصر جلالته بين المرضى في قاعة أخرى شيخاً طاعناً في السن فسار إليه ليحادثه فلما رأى المسكين مليك البلاد يدنو منه جلس في سريره وهو يبتسم فحياه

جلالته بيده الكريمة وهو يقول له :« يابو يه عندك إيه ؟ » فأخبره الشيخ بمرضه فسأله جلالته : « وهل أنت أحسن الآن ؟» فأجاب الرجل وهو يحدق في جلالته « قوي » وابتسم فبانت أسنانه بين شفتيه اللتين غطاهما شارباه ولحيته الكثة

وكان بين المرضى في قاعة من قاعات الدرجة الثانيـــة رجل أسمر اللون شاء الدكتور محجوب ثابت أن يسميه نوبياً فما كاد يلمح جلالة الملك حتى رحب بجلالته بكلمة ارتجلها بالألفاظ العامية كقوله : «يا اللي ما فيش زيك لا من قبل ولا من بعد . . ربنا يحفظ لنا ملكنا الدستوري » فسر جلالته بألفاظه والتفت إلى رفعة النحاس باشا وقال له باسماً وهو يشير إلى النوبي الخطيب : «ده سياسي» ثم قال جلالته : « الظاهر أنه ليس هنا مرضى فقط بل سياسيون أيضاً » وانتهز جلالته فرصة وجود النحاس باشا بجانبه — وكان إذ ذاك رئيساً للوزارة — وقال له : «نحن نريد أن نستمر في هذه الأعمال باجتهاد ونشاط، أعمال الإنسانية والتدريس والتعليم » . ولمح جلالته في إحدى القاعات الأخيرة التي طاف فيها رجلا متقدماً في السن لا يقوى على الحركة فانحنى جلالته فوق رأسه بنفسه كي لا يكلفه مؤونة رفع صوته

و بعد ما انتهى جلالة الملك من الطواف بقسم الرجال عرج على القسم الخاص بالنساء ولما وصل إلى قاعة الأمهات اللاتي وضعن حديثاً ألفى في مقدمة سرير كل منهن سريراً صغيراً لتضع فيه طفلها فسر جلالته جداً بهذا المنظر ودعا لأولئك الأمهات الفقيرات بالسعادة والتوفيق فارتفعت أصواتهن بالابتهال إلى الله أن يحفظ جلالته وولي عهده

ثم طاف جلالته بالقسم الخاص بالأولاد فعطف عليهم عطفاً أبوياً كان له أجمل وقع في النفوس ,

المؤسسات الانسانية

ليس في مصر من يجهل قيمة الخدمة الإنسانية العظيمة التي تسديها جمعية الإسعاف العمومية إلى الهيئة الإجتماعية

ولولا الملك فؤاد لما قامت لهذه الجمعية قائمة بل لما عاشت إلى هذا اليوم

فقد أنشئت في ١٣ مايو سنة ١٩٠٧ والآمال المعقودة على نجاحها كثيرة ولكن لم ينقض على إنشائها فترة قصيرة من الزمان حتى دب الخلاف بين المشرفين على إدارتها وهدد كيانها بالزوال فلجأوا إلى الأمير أحمد فؤاد لينقذها كما لجأوا إليه قبلا لينقذ الجامعة . وكان طيب الله ثراه يعطف بفطرته على مشروعات الإصلاح الإنسانية والاجتماعية ويقدر بثاقب فكره الفائدة العظيمة التي تستطيع البلاد أن تجنيها منها فقبل رئاستها ومن ذلك اليوم كتب لها البقاء وبلغت ما بلغته من أطراد التقدم والنجاح

ويؤخذ من سجلات الجمعية أن عدد الحوادث التي أسعفتها في سنة ١٩٠٨ — وهي السنة التي أنشئت فيها — لم يزد على ١٦٣٨ فلم تأت سنة ١٩١٠ وهي السنة التي قبل فيها الأمير أحمد فؤاد رئاستها حتى قفز الرقم إلى ٤٦٨٠ . وفي سنة ١٩١٣ زاد إلى ١٢٢٦٩ . وفي سنة ١٩٢١ كان ١٨٥٠٠

وفي سنة ١٩٣٦ — وهي سنة وفاة الملك فؤاد — أسعفت جمعية الإسعاف ٦٥٩٥٢ في القاهرة و ٤٣٧١ فى مصر الجديدة وبلغ عدد متطوعي الجمعية في تلك السنة ٢٥٠

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه في سنة ١٩١٣ اضطر الأمير احمد فؤاد إلى التخلي عن رئاسة جمعية الإسعاف لأنه كان مسافراً إلى أوربا في رحلة طويلة فاجتمع مجلس إدارة الجمعية وكتب إلى سموه يقول « لقد علمنا مع الأسف الشديد القرار الذي قررتموه فاننا لا نجهل أن مؤسستنا مدينة بازدهارها العظيم لنشاط سموكم الدائم » . ورجا مجلس الإدارة من سموه فى ختام كتابه إليه أن يتفضل بقبول رئاسة الجمعية الفخرية

غير أن سموه لم يلبث أن عاد إلى مصر فرجع إلى رئاسة الجمعية في أواخر سنة ١٩١٤

وما كاد بعد ذلك يعتلي العرش حتى ضاعف رعايته للجمعية فكان أول ما عمله أن وجه عنايته إلى توحيد جهود جمعيات الإسعاف التي كانت قائمة في ذلك الحين وهي جمعيات القاهرة والإسكندرية وطنطا والمنصورة فاندمجت كلها في الاتحاد الملكي لجمعيات الإسعاف العمومية المختلطة في مصر وكان ذلك في سنة ١٩٢٤ ثم انضم إليها ما جد من جمعيات مماثلة لها في سائر مدن المملكة كجمعيات بور سعيد ودمنهور وأسيوط والفيوم وغيرها

✲ ✲ ✲

وروى لنا سعادة محمود فهمى القيسي باشا أنه مابرح يذكر أنه لما كان المديرون يتشرفون بمقابلة الملك فؤاد في حفلات التشريفات كان جلالته يوجه نظر كل مدير بدوره إلى ضرورة بذل مجهود خاص في سبيل تعميم جمعيات الإسعاف في الأقاليم فتشمل المراكز كما شملت عواصم المحافظات والمديريات . قال القيسي باشا « و بهذه الرعاية استطاعت مصر أن تشترك اشتراكاً مشرفاً في مؤتمر بروكسل الدولي لاتحادات الإسعاف وجمعياته في العالم كله فمنحت مدالية المؤتمر الذهبية »

✲ ✲ ✲

وفي ٢٤ يناير سنة ١٩٢٧ افتتح الملك فؤاد عيادة الجراحة الجديدة لجمعية الإسعاف في القاهرة وخطب يومئذ بين يديه المرحوم المسيو هنري نوس بك رئيس الاتحاد فقال « إن افتتاح هذه العيادة اليوم لمرحلة جديدة في حياة جمعية الإسعاف — هذه المؤسسة التي انقذتموها جلالتكم فكفلتم النجاح للخدمة الإنسانية التي تسديها إلى البلاد »

وقال المغفور له الدكتور محمد شاهين باشا في خطبته أنه لولا منح الملك فؤاد المادية لجمعية الإسعاف « لغدت نسياً منسياً »

و بعد ما ألقى نوس بك والدكتور شاهين باشا كلمتيهما مرت وحدات متطوعي القاهرة والأقاليم أمام جلالته بشكل عرض عام فكان يحيي علم كل وحدة منها ثم نهض جلالته بعد ذلك وخرج إلى شرفة تطل على خط سكة الحديد وشاهد تمثيل إنقاذ ركاب قطار و إسعافهم ، فانه عندما ظهر جلالته على الشرفة أقبل قطار يتألف من قاطرة ومركبات لركاب الدرجة الثالثة ازدحمت بجمهور من الأهلين القرويين وهم يبكون ويولولون فبادر رجال الإسعاف إلى إسعافهم فضمدوا جروح المجروحين ونقلوا المصابين على نقالات إلى السيارات الكبيرة إلى غير ذلك من عمليات الإسعاف فبرهنوا على مقدرة و براعة وسرعة فى العمل عظيمة ، فصفق لهم جلالته طويلا وشاطره الحاضرون هذا التصفيق

وتوجه جلالته من هناك إلى مستوصف الجمعية فتفقد حجرها وعنابرها وكان ركاب القطار الذين مثلوا دور المصابين قد نقلوا إليها فهتفوا لجلالته

و بعدما زار جلالته قاعة مجلس الإدارة وشرف دفتر الزيارة بامضائه الكريم أعرب لرجال الجمعية عن ارتياحه السامي إلى كل ما شاهده وعن أمله بأن تمضي الجمعية باطراد في عملها الإنساني العظيم ، ثم انصرف مشيعاً بمثل ما قوبل به من التجلة والاحترام

وقبل أن نختم هذه الفذلكة عن اهتمام الملك فؤاد بجمعيات الإسعاف نورد ما ذكره مرة أحد كبار رجال القصر وهو أنه في سنة ١٩٣٠ دعاه جلالته وأمره بزيارة المسيو كاسترو السكرتير العام لاتحاد الإسعاف وإبلاغه أن جلالته يريد منه أن يعد خارطة للمملكة المصرية يبين فيها الجهات التي أنشئت فيها مراكز للاسعاف والجهات التي لا تزال محرومة منها مع الإشارة إلى الجهات التي يرى تعميم مراكز الإسعاف فيها قبل غيرها . قال الموظف الكبير : « وكان جلالته يومئذ منحرف الصحة ومشغولا بتتبع سير المفاوضات في لندن »

* * *

وأنشئت جمعية الهلال الأحمر في سنة ١٩١٢ لمساعدة منكوبي طرابلس الغرب ولكن لم تأت سنة ١٩١٦ حتى شعر الذين يقدرون خدمات هذه الجمعية حق قدرها أنها بحاجة إلى يد تنتشلها من وهدتها فرضى الأمير أحمد فؤاد أن يمد لها هذه اليد وما كاد يتولى رئاستها حتى أصبح لها مستشفى يحتوي على ثلاث مئة سرير عولج فيه مئات الجرحى والمرضى المسلمين القادمين من ميادين القتال وكان جلهم من الترك والسوريين ولم تكتف الجمعية بمعالجتهم بل كانت توزع عليهم الملابس والنقود ولا يزال الذين عاصروا تلك الأيام يذكرون أن الأمير أحمد فؤاد كان يشرف على كل شيء بنفسه ولا يغفل أمراً من الأمور مهما بدا تافهاً في نظر رجال الجمعية

ولم تنزل ببلد إسلامي نكبة من النكبات حتى كانت جمعية الهلال الأحمر تجد في سمو رئيسها أول حافز لها على إرسال الملابس والأدوية والنقود إلى المحتاجين من المنكوبين وقد حسبوا أن الجمعية أرسلت أكثر من ٢٥٠٠٠ جنيه إلى منكوبي الأناضول في أثناء انهماك الغازي كمال أتاتورك بتحرير بلاده

وفي سنة ١٩٢٦ ابتليت بلاد البلجيك بكارثة الفيضان وأمسى ألوف من سكانها بلا مأوى ولا معين فلم يكن من جمعية الهلال الأحمر المصرية إلا أن أرسلت هبة مالية كبيرة إلى الصليب الأحمر البلجيكي إظهاراً لعطفها على البلجيك في محنتها وكان ذلك بإيعاز من الملك فؤاد . ويؤثر عنه أنه قال يومئذ « إذا كان العلم لا وطن له فالإنسانية كذلك لا وطن لها »

obeikandl.com